

## أول سفر في تاريخ البشر

أبوالبشر أول من ابتدأ السفر، لقد سافر سفره الأول من الجنة إلى الأرض، من البقاء إلى الفناء، ومن الراحة إلى العناء، سافر من النعيم، وجوار الرب الكريم، إلى الكدح المستديم، سافر عن الأنهار والأشجار والظلال، إلى الصحاري والوهاد والجبال، كان ذلك السفر بداية التعب والشقاء، والكلفة والعناء، التي كتبت على آدم وذريته بجريرة الذنب وشؤم المعصية وتبعة الخطيئة، ونكد المخالفة ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ ﴿١٧﴾ .

فلما استجاب آدم لمشورة إبليس - لعنه الله - وخالف أمر مولاه، حُكم عليه بمغادرة الجنة، في الحال، إلى دار الفناء والزوال، فأهبطَ منها إلى الأرض ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٦﴾ فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ .

لقد صدرت الأوامر الربانية بمغادرة آدم وحواء وإبليس من الجنة، فأما آدم فقد تاب إلى ربه وأناب إليه، فتاب عليه، وعلى زوجته ﴿فَالَا رَبِّيَ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿١٢﴾ وأما إبليس فخرج منها مذؤوماً مدحوراً ملعوناً، لأنه أبى السجود لآدم مع الملائكة، وأخذة الكبر والإعجاب بالنفس ﴿قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْؤُومًا وَمَدْحُورًا لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ

أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

ويروى أن آدم - عليه السلام - أهبط بالهند وحواء بجدة، وأنهما بعد ذلك تقابلا وتعارفا في عرفات .

ويروى أن آدم - عليه السلام - نزل من الجنة بالحجر الأسود، وبقبضة من ورق الجنة فبثه في الهند فنبت شجرة الطيب هناك . وقيل : أهبط آدم بالصفاء وحواء بالمرورة .

وكان سفر آدم - عليه السلام - وهبوطه من الجنة في يوم الجمعة . قال ﷺ : «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها» [أخرجه مسلم] .

وقد سافر آدم للحج كما في بعض الروايات التي تروى، وقد روي أيضاً في الحديث أن الله أخذ الميثاق عليه بنعمان يوم عرفة . عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنفَهُلْ كُنَّا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ » [الصحيحة : ١٦٢٣] .

وذكر ابن جرير عن ابن عباس : إن الله قال يا آدم إن لي حرماً بحيال عرشي ، فأنطلق فابن لي فيه بيتاً فطف به كما تطوف ملائكتي بعرشي ، وأرسل الله له ملكاً فعرفه وعلمه المناسك .

وبعد أن سن لنا أبونا آدم عليه السلام السفر وبعد أن عُمِّر ألف عام سافر مرة أخرى إلى المكان الذي قدم منه إلى ربه سبحانه وتعالى .

## من فوائد السفر

للسفر فوائد عظيمة وآثار حميدة على الإنسان، ونذكر هنا طرفاً من تلك الفوائد، ودرراً من تلك الفوائد.

١- قراءة معاني الوحداية في دفتر الكون، ودراسة براهين العظمة في سفر الحياة.

وكتابي الفضاء أقرأ فيه صوراً ما قرأتها في كتاب يقرأ المسافر في دفتر الكون آيات الباري، وحكمة الخالق، وبديع صنع المبدع.

فيا عجباً كيف يعصى الإله بل كيف يجحده الجاحد  
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد  
يقول تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ  
النَّشَأَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]

٢- اكتساب المعيشة والبحث عن أسباب الرزق الحلال. يقول تعالى:  
﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا وَإِلَيْهِ  
الْشُّورُ ﴾ [المالك: ١٥]

ويقول تعالى: ﴿ وَآخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [المزمل: ٢٠]  
قال الشاعر:

وقفتُ وقوفَ الشكِّ ثم استمرَّ لي  
فودَّعتُ من أهلي وبالقلبِ ما بهِ  
وباكيةٍ للبين قلتُ لها: اصبري  
وقيني بأن الموتَ خيرٌ من الفقرِ  
وسرتُ عن الأوطان في طلبِ اليسرِ  
فللموتِ خيرٌ من حياةٍ على عُسرِ

سَأَكْسِبُ مَالاً أَوْ أَمُوتُ بِيَلَدَةٍ      يَقِلُّ بِهَا فَيَضُّ الدَّمُوعِ عَلَى قَبْرِي  
وقال الآخر:

ليس ارتحالك في نفس الغنى سفراً      بل المقام على فقر هو السفر  
وقال الآخر:

صبر الأديب على الهوان مذلة      ما للأديب يرى بدار هوان  
أرض الإله لخلقه مبسوطةً      والرزق مقسومٌ بكل مكان  
وقال الآخر:

وما طلبُ المعيشة بالتمني      ولكن أَلْتِي دَلُوكَ فِي الدَّلَاءِ  
يجيء بمائها طوراً وطوراً      يجيء بِحَمَاةٍ وَقَلِيلِ مَاءِ  
ولا تقعدُ على كسل التمني      تُحِيلُ عَلَى الْمَقْدَرِ وَالْقَضَاءِ  
وقال الآخر:

ألا خلني أمضي لشأني ولا أكنُ      على الأهل كلاً إن ذا لشديدُ  
تُهَيِّبُنِي رِيْبَ الْمُنُونِ وَلَمْ أَكُنْ      لأهرب مما ليس منه محيد  
فلو كنتُ ذا مالٍ لَقَرَّبَ مَجْلِسِي      وقيل إذا أخطأتُ أنت رشيد  
فدعني أجول الأرض عمري لعله      يُسِرُّ صَدِيقٌ أَوْ يَغَاطِ حَسُودُ  
وقال آخر:

وما هي إلا بلدةٌ مثل بلدتي      خيارهما ما كان عوناً على دهري  
٣- مفارقة الديار التي لا يجد فيها الإنسان مكانه اللائق به، أو يرى في ساكنيها جفوة وتنكراً، وسوء معاملة، أو مذلة أو إهانة.

قال الشاعر:

إذا ما ضاق صدرك من بلادٍ      ترحل طالباً أرضاً سواها

عجبتُ لمن يقيم بأرض ذلٍّ وأرض الله واسعةٌ فضاها  
ففسك فز بها إن خفتَ ضيماً وحلُّ الدار تنعي من بناها  
فإنك واجدٌ أرضاً بأرضٍ ونفسك لم تجد نفساً سواها  
وقال آخر:

ومثلي إذا ما الدار يوماً نبث به تحوّل عنها واستمرت سرائره  
إذا أنت لم تُغبط بدارٍ سكنتها فبعها بأخرى أو بجار تجاوره  
وقال آخر، وبالروعة ما قال:

ارحل بنفسك من أرضٍ تضام بها ولا تكن لفراق الأهل في حرقٍ  
من ذلٍّ بين أهاليه ببلدته فالاغتراب له من أحسن الخلقِ  
الكحل نوعٌ من الأحجار منطرحاً في أرضه كالثرى يُزأى على الطُرقِ  
لما تغرّب نال العز أجمعه وصار يحمل بين الجفن والحدقِ  
وقال الآخر:

فغرّب ولا تحفل بفرقةٍ موطن تفرّز بالمنى في كلِّ ماشئت من حاجٍ  
فلولا اغترابُ المسك ما حلَّ مفرقاً ولولا اغتراب الدُرِّ ما حلَّ في التاجِ  
وقال الآخر:

بلادُ الله واسعةٌ فضاءً ورزق الله في الدنيا فسيح  
فقل للقاعدين على هوانٍ إذا ضاقت بكم أرضٌ فسيحوا

٤- انفراج الهم وزوال الغم والتجديد على النفس وكسب الأصدقاء  
والتعرف على البلاد.

تنقل فلذاتُ الهوى في التنقلِ ورذ كل صافٍ لا تقف عند منهلٍ  
ففي الأرض أحبابٌ وفيها منازلٌ فلا تبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل

ولا تستمع قول امرئ القيس إنه  
يقول الشافعي جامعاً لبعض فوائد السفر.

تغرب عن الأوطان تكتسب العلا  
تفرج هم و اكتساب معيشة  
وقال آخر:

ما في المقام لذي عقلٍ وذي أدبٍ  
سافر تجد عوضاً عن تصاحبه  
إني رأيت وقوف الماء يفسده  
والأسد لولا فراق الغاب ما قنصت  
والشمس لو وقفت في الفلك دائمةً  
والبدر لولا أفول منه ما نظرت  
والثبر كالترب ملقى في أماكنه  
فإن تغرب هذا عز مطلبه  
٥- إذهب الملل من طول المخالطة، والتلذذ بحلاوة اللقاء بعد طول

الفراق.

وطول مقام المرء في الحي مخلوق  
ألم تر أن الشمس زِيدَتْ محبة  
وقال آخر:

ألأمتي كُفِّي الملام من الذي  
فلولا سُرى البدر المنير لعاقه  
أحاوله من رحلة وسفار  
عن التملُّ لبث في مغيب سرار

وهذا كعب بن مالك يقول:

إن كنت تعلم أن الأرض واسعة  
فارحل فإن بلاد الله ما خلقت  
إن ضاق بي بلد هيّا له عوضاً  
وإن تغير لي عن وده رجلٌ  
لم يقطع الله لي من صاحب أملاً  
لا تمتهن أبداً خديك من طمع  
وابغ المكاسب من أركى مطالبها

٦- أخذ العظة والعبرة من أحوال الأمم السابقة فإن الأمم والدول  
والبشر مهما عاشوا فإن مصيرهم إلى الزوال والفناء مهما اكتسبوا من القوة  
والبطش والحضارة ﴿وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]

فيكون في ذلك حافز للإنسان على استغلال الحياة فيما ينفعه ويقربه  
من ربه ويجعله مع الذين أنعم الله عليهم ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا  
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ  
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١]

٧- اكتساب الأصحاب واتخاذ الأصدقاء والتعرف على الوجوه

الجديدة.

ففي الأرض أحبابٌ وفيها مناهلٌ فلا تبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ

## المسافر والطبيعة

تلك الطبيعة قف بنا ياساري      حتى أريكَ بديع صنع الباري  
 فالأرض حولك والسماء اهتزتا      لروائع الآيات والآثار  
 ولقد تمرُّ على الغدير تخاله      والنبتِ مرآةً زهت بإطار  
 حلو التسلسل موجهٌ وخريره      كأنامل سارت على أوتار  
 ينساب في مخضلةٍ مبتلةٍ      منسوجة من سندس ونضار  
 وترى السماءضحى وفي جنح الدجى      منسقةً عن أنهر وبحار  
 في كل ناحية سلكتَ ومذهب      جبلان من صخر وماءٍ جاري  
 ليس للحياة قيمةٌ إذا اقتصرت على الماديات وانغمست فيها ولم تعبا  
 بروعة الطبيعة، وأسرار الكون، ولم تلتفت إلى جمال الأزهار، وتألقت  
 النجوم، وزينة السماء، وخرير الماء، وعظمة الجبال، وأسرار الوهاد. إن  
 العاطفة هي ملح الحياة، وبها يدرك الإنسان أسرار الوجود، وباطن العالم.  
 الإنسان ينبغي أن يتجاوب مع الطبيعة ويشعر بها. يشعر بجمال السماء  
 والأرض، وجمال الطيور والأزهار، والحدائق والأشجار، وشروق  
 الشمس وغروبها، وعظمة الأنهار والبحار... كم في هذا الكون من  
 الجمال الخلّاب، ولكنه يحتاج إلى عين تنظره، وقلوب تتأمله ﴿أَفَلَا  
 يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ الَّتِي خَلَقْنَا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلِئَلَّامَهُمْ  
 يُنظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ الَّتِي خَلَقْنَا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلِئَلَّامَهُمْ  
 نُصِيبَتْ ﴿١٦﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

إن من فوائد السفر التمتع بمظاهر الطبيعة الخلّابة، ومباهجها الجذابة،

ومياها المناسبة، فالمسافر يتأمل الجبال الشاهقة، والأعلام الشامخة ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوًسًا أَنْ نَعِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَزًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ فيخلب لبه تركيبها البديع، وشأوها الرفيع، يتأمل صخورها العملاقة، وتروقه ألوانها الزاهية ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ﴿٢٧﴾ [فاطر].

هذه جبال معممة بالثلوج، وأخرى مكسوة بالأشجار، وتلك صخرية جرداء، جبالٌ تفتن النظر بجمالها وعظمتها، وتعايرجها وارتفاعها، في أعاليها يتعانق السحاب، وفي هيكلها تتلون الصخور، وفي باطنها المناجم تعج بالخير، وفي أسفلها الوديان تموج بالحياة، ثم هي تشمخ بقممها كأنما تريد أن تناطح السماء.

وبينا المسافر كذلك إذا به يتخطاها إلى سواها ويجاوزها إلى غيرها، يودعها ليمرّ بالمروج الخضراء، والحدائق الغناء.

وأطلق الطير فيها سجع منطقه والظل يسرق بين الدوح خطوته  
 وللمياه ديب غير مسترق والنجس الغض فيها شاخص الحدق  
 والطير تسجع من تيه ومن أنق والسحب تبكي وثر البرق مبتسم  
 والماء في هرب والغصن في قلق فالطير في طرب والسحب في حرب  
 والمسافر يمتع ناظره بالأشجار المثمرة، والورود المزهرة، يعبر الوادي الجميل، وقد اشتبكت أشجاره، ولاحت ثماره من أحمر وأصفر وأزرق وأخضر وغيرها، وبين ذلك أنواع الرياحين والزهور والورود ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا

خُرِجَ مِنْهُ حَبًّا مُتْرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنَوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ  
وَالزَّيْتُونِ وَالرَّمَّانِ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ  
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ [الأنعام].

إن الثمار والأزهار عالم عجيب غريب، وهي عالم وحده، كعالم الطيور، وعالم الإنسان، تعدد مناظرها، ويتنوع جمالها، وتتفاوت من حيث روائحها، ففيها قوي الرائحة كالفل والياسمين، ومتوسط الرائحة كبعض الورود والقرنفل، وضعيف الرائحة كالأقحوان، ومنها ما ليس له رائحة، وليس يتوقف جمال الأزهار والورود على الرائحة، فالرائحة تتصل بالشم، وهو أقل الحواس قيمة إذا قيس بالسمع والبصر، فهنالك من الأشجار والورود والأزهار ما تكمن قيمة المتعة بها في رؤيتها والتأمل في بديع ألوانها وأشكالها.

فما تقع العين إلا على رياض تصنّف أنوارها  
يفتح فيها نسيم الصبا خباها ويهتك أستارها  
ويدني إلى بعضها بعضها كضم الأحبة زوارها  
تغض لنرجسها أعيناً وطوراً تحدق أبصارها  
إذا مزنة سكبت ماءها على بقعة أشعلت نارها

وتشرق النفس ويهفو الفؤاد لمنظر الماء الرقراق وهو يختال من بين الأشجار والأزهار فيروي عطشها ويزيد رونقها ويتمم بهجتها.

وتنوعت بسط الرياض فزهرها متباين الأشكال والألوان  
من أبيض يقق وأصفر فاقع أو أزرق صافٍ وأحمر قانٍ  
والظل يسرع في الخمائل خطوه والغصن يخطر خطرة التشوان

والشمس تنظر من خلال فروعها  
والأرض تعجب كيف يضحك والحياء  
حتى إذا افترت مباسم زهرها  
طفع السرور عليّ حتى إنه  
نحو الحدائق نظرة الغيران  
يبكي بدمع دائم الهملان  
وبكى السحاب بدمع هتان  
من عظم ما قد سرّني أبكاني

\* \* \*

انظر إلى زهر الربيع وما جلت  
أبدت لنا الأمطار فيه بدائعاً  
فيه عليك طرائف الأنوار  
شهدت بحكمة مُنزل الأمطار

\* \* \*

أست ترى وشي الربيع المنمنما  
فقد حكّت الأرض السماء بنورها  
فخطرتُها كالجو في حسن لونه  
فمن نرجس لما رأى حسن نقشه  
وأبدى على الورد الجني تطاولاً  
وزهر شقيق نازع الورد فضله  
وظلّ لفرط الحزن يلطم خده  
ومن سوسن لما رأى الصبغ كله  
تجلّب من زرق اليواقيت حلة  
وأنوار منشور تخلف شكلها

ثم يجاوز المسافر ذلك ليمر بالصحاري الواسعة، والوهاد الشاسعة،  
يتسلّى بمطاردة السراب حين يترأى أمامه على بعد وكأنه الماء الزلال  
حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً فيثير عنده ذلك المثل العجيب الذي ضربه الله

تعالى لأصحاب الأعمال الخاسرة الذين عملوا أعمالاً كثيرة فظنوا أنها تنفعهم فلم تُغن عنهم من الله شيئاً لأنهم كفروا بالله ورسوله ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُنَّ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾.

وللصحراء جمالها الساحر، سكون عميق يهدئ الأعصاب، وصفاء جو ينعش النفس، وأنس بالطبيعة كما خلقت، وجوٌ فسيح طليق تتجاوب فيه الرياح، فلا يحبسها بناء، وشمس تسطع فلا يقيدها قيد، وللهواء وللشمس طعم ولون ورائحة غير ما لها في الحاضرة والمدينة، يشعر الإنسان فيها بقربه من الطبيعة وقربه من ربه، الخالق الكريم، التواب الرحيم، الذي يفرح بتوبة عبده إليه أشد من فرح إنسان كان بصحراء شاسعة، وفلاة موحشة ومعه راحلته وعليها طعامه وشرابه فانفلتت منه فأيس منها، فجلس إلى جذع شجرة ينتظر الهلاك فأخذته إغفائه ثم أفاق فإذا بها واقفة عند رأسه فقام إليها وأمسك بزمامها ثم صاح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح.

فالصحراء تذكر المرء بهذا المثل الرائع والخير الماتع الذي أخبرنا به ﷺ.

الصحراء:

يقول عبدالرحمن شكري:

أرْحُبُّكَ أم صمتٌ على الأرض غالب  
كصمت الخشوع المطرقين تروعهم  
غدا مُصْحِرٌ آمن روعه وهو هائب  
على الأفق بُشْرَى كدَّبَتْها العواقب  
مقابرٌ صرعى للردى وخرائب  
وقد تُهْلِكُ المرءَ المنى والرغائب  
سراب الأمانى في الحياة خديعةٌ

ومن ضل في خرق من العيش لبه  
تفتّح أبواب الجحيم عن اللظى  
سموم كدْفَاعِ البراكين أو لظى الـ  
أما يخشع السُّمَّار من كثرة الدنا  
بييت يناجي النجم والنجم سامر  
كأن لحاظ النجم من لحظ عاقل  
يسأله عن عيشه أين سرُّه  
إذا خط فيك الدهر سطرأ محوته  
وتُرقل فيك اليعملات وإنما  
وللبحر أمواج ولليد مثلها  
فيغرق في لَج من الترب حائنٌ  
ورحبك رَحْبُ البحر يطويك هائب  
بأفقكما للشهب رهب وروعة  
وذي دولة في اليمِّ قد دال أمره  
ويصغر عيش المرء في اليم مثلما  
لِمَخْلِكٍ يلقى مكرم الضيف ضيفه  
وتشحذه الأخطار حتى كأنما  
لقد صقلتها نار قَيْنٍ وصيقل  
تَنَسَّكَتْ في بُرْدِ التَّقْشِفِ لم يَلِنُ  
وهكذا يظل المسافر يتنقل في رحلته بين فنون متباينة وأشكال متغيرة،  
جبال ووهاد، عيون وأنهار، بساتين وأشجار، مزارع وفقار، جداول

وخمائل ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١١﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ .

وصاحب القلب الحي يجيد التعامل مع الطبيعة يعرف سرها، ويسبر غورها، ويشكر من خلقها وأوجدها، وذوو الإيمان الصادق يزدادون إيماناً مع إيمانهم، وإحساناً مع إحسانهم، وإذعاناً مع إذعانهم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجَعُ لَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفْقَتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُمْ وَنَسِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾ .

ولا يزال المسافر الواعي صاحب الضمير الحي والخيال الواسع، والأفق البعيد، يتنقل في سفره بجسمه وروحه، وقلبه وعقله، فقد يكون مسافراً من طريق البحر، فيتأمل عظمته، ويتدبر هيئته، ويتفكر في عجائبه، ويتعوذ من مخاطره، ويتأمل في المخلوقات التي تعيش فيه، والسفن والبواخر التي تمخر عبابه ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ .

وقد يكون السفر عن طريق الجو، وما أدراك ما الجو. وما أدراك ما السفر في الطائرة.

المسافر في الجو يساومه الموت، ويداعبه الهلاك، ينظر في الأرض فإذا هي في نظره أبعد من السماء، وينظر في السماء فإذا هو قد جاوز السحاب. مصيره فوق قطعة من حديد، ونهايته في هزة مسمار، إن وقع صار شذر مذر لا جبل يحمله، ولا نهر يرفه، ولا رابية تقله. إذا سمع قوة

الريح ارتبك وخاف، وإذا حدث في الطائرة صوت قال هذا آخر المطاف .  
 ويتمتع المسافر بجمال الصباح وانبثاق الضوء، وبزوغ الشمس .  
 الصبح ينثر فوق مسـ ك الليل كافور الضياء

\* \* \*

وكانما الشمس المنيرة إذ بدت والبدر يجنح للغروب وما غرب  
 متحاربان لذا مجنٌ صاغه من فضة ولذا مجنٌ من ذهب  
 هذه الشمس الجميلة القوية تفعل أفاعيلها العجيبة في أرضنا: تبخر  
 الماء وترفعه غيومها في السماء وتنزله - بأمر الله تعالى - أمطاراً تجري به  
 بحاراً وأنهاراً، ويسقى به الزرع فينمو ويهيج، والأزهار فتضج وتتفتح .

ويشعر المسافر بالرهبة والسكون عند قدوم الليل ويتأمل في عظمة  
 العزيز الجليل ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾  
 وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٢٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ  
 الْقَمَرَ وَلَا الْبَلُّ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ .

ويتلذذ المسافر السائح في الكون، والمنطلق في الفضاء الرَّحْبِ،  
 يتلذذ بمنظر الغروب، وجمال الشمس، وهي تودع الأرض وتتوارى عن  
 الأعين شيئاً فشيئاً. ثم يبدأ البدر يطل علينا في لونه العجيب، وثوبه  
 القشيب:

وكان البدر لما لاح من تحت الثريا  
 ملكٌ أقبل في التآج يُفدئُ ويحييَا  
 ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي إِنَّ فِي  
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ .

يقول أحد الشعراء المتأملين في جمال الطبيعة وقد رأى الشمس وهي تغرب لاسيما منظرها لمن كان يرقبها من على شاطئ البحر، فهو منظر عجيب بديع، ثم منظر الهلال حين يعقبها ويحتل مكانتها:

كأن الشمس إذ غربت غريقٌ هوى في البحر أو وافئ مَعَاصَا  
فَأَتْبَعَهَا الهلال على غروبٍ بزورقه يريد لها خلاصا  
ويقول آخر:

وليل ترى الفجر في عِطْفِهِ كما شاب بعضُ جناح الغرابِ  
يغارُ الظلام على شمسهِ إلى أن يوارِيها بالحجابِ  
ويقول أحد الكتاب عن الشمس:

كل شيء في الطبيعة جميل، وأجمل ما فيها شمسها. وهي في شتائنا أجمل منها في صيفنا، ولها في كلِّ جمال.

فلها - صيفاً - جمال القوة، وجمال القهر، وجمال السفور الدائم، نُعْظِمُهَا ونجلها؛ ونهربُ منها ولكن نحبها؛ تقسو أحياناً ولكننا نرى الخير في قسوتها، فهي كالمربي الحكيم، تقسو وترحم، وتشد وتلين، تلفحنا بنارها، ولكنها نار كنار الحب يكتوي بها قلب العاشق، ثم هو يرجو بقاءها ويخشى زوالها، ترسل علينا شواظاً من نار، فتسفع جلودنا، وتكوي جباهنا، حتى إذا غلى جوفنا، ووغر صدرنا، غابت عنا، وأرسلت رسولها اللطيف الوديع (القمر) فخفف من حدتنا، ولطف من سورتنا، وأصلح ما أفسدت، وضمّد ما جرحت؛ فإذا خشيت أن نطمئن إليه، أدركتها الغيرة منه فغيبته، وطلعت علينا بهائها وجمالها وجلالها، وهكذا دواليك.

وهي - شتاءً - تطلع علينا بوجه آخر، ترينا فيه جمال الحنو، وجمال الدعة، وجمال الرحمة والعطف، وجمال الغادة اللعوب، تشاغلك فتظهر وتختفي، وتسفر وتحتجب، وتخرج من قناعها ثم تتقنع.

وتنتقم من رسولها الذي غارت منه صيفاً، فتطلعه علينا في جو بارد لا نطيقه حتى لا نفكر إلا في دفتها ونعمتها، ولا نشاق لشيء شوقنا لرؤيتها.

فما أجملها قاسية وراحمة! وما أجملها واصلة وهاجرة!

تتلون بشتى الألوان فتسحر العقول، وتبهر العيون؛ فهي تارة بيضاء، وتارة صفراء، وتارة حمراء؛ ثم لا تستطيع أن تحكم هي في أيها أبهى وأجمل، فهي تزين ثيابها بأكثر مما تزينها ثيابها.

وقال أحد الشعراء، يصف الشمس:

مُخَبَّأَةٌ، أما إذا الليلُ جنها  
إذا انشق عنها ساطع الفجر وانجلى  
وَأَلَيْسَ عَرْضُ الأَرْضِ لونها كأنه  
تحلت، وفيها حين يبدو شعاعها  
بلون، كدرع الزعفران يشوبه  
إلى أن عَلتْ وابتضَّ منها اصفرارها  
وجللت الآفاق ضوءاً ينيرها  
تري الطلَّ يطوى حين تعلو وتارة  
وتدنفُ حتى ما يكاد شعاعها  
كما بدأت، إذ أشرقَتْ، في مغيها  
فَأَفْنَتْ قروناً، وهي في ذاك لم تزل

فتخفى، وأما بالنهار فتظهرُ  
دُجى الليل وانجاب الحجاب المسْتُرُّ  
على الأفق الشرقي ثوبٌ معصر  
ولم يحل للعين البصيرة منظر  
شعاعٌ تلاًلاً، فهو أبيض أصفر  
وجالت كما جال المهيج المسهر  
فخرَّ لها صدر الضحى يتسَعَّرُ  
تراه إذا مالت إلى الأرض ينشر  
يبين إذا غابت لمن يتبصر  
تعود كما عاد الكبير المعمرُ  
تموت وتحيا كل يوم وتُنشَرُ